

كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء زاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت إلى شيء، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكاني منك، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك، وحين كنت أواسيك وأعزيك وأجتهد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء.

ها أنت ذي تسعين إليّ وتجلسين إلى جانبي، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفي، وهذي يدي تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة الصامته، وها أنا ذي أخلي بينك وبين البكاء حيناً وأمضي معك فيه، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه، وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه، ولكنك تنهضين وتذهبين، ثم تعودين لي بعد قليل واجمة ثم مروعة، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهدئة لك. وهذه الأشباح الحمراء تتراءى لنا كما كانت تتراءى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر الأثيم، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمي وتنهضي إليها، وتستحيي إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء! وها أنتن أولاء تطفن بي وتضطربن من حولي وتستبقن إلى أذني تردن أن تلقين فيها ألوان الحديث. وها أنا ذي مروعة مفاجعة، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصيح، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة. وها أنا ذي أرى الينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير. وها أنا ذي أنهض خائفة مولهة، أريد أن أفر من هذه الغرفة، ولكن إلى أين؟!

نعم! إلى أين والليل ساكن جاثم؟ وأين تستطيع فتاة مثلي أن تذهب والليل ساكن جاثم؟ لأوقظن هذه المرأة التي تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة، لأوقظنها ولأقضين معها بقية الليل في الحديث ... ولكني لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذني الأشباح من كل مكان، وحتى تسعى إليّ أختي وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة، وهي تلقي في نفسي هذه الكلمات التي تقع منها مواقع السهام المحرقة: لا توقظيها إنها تخيفنا، وإن أيقظتها تطردنا، ماذا تخافين منا؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك، أفنسيتنا إلى هذا الحد؟ كلا! كلا! لم أنسكن ولن أنساكن، ولن أذودكن عن نفسي، ولن أوقظ هذه المرأة التي تخيفكن. أقمن معي، أطفن بي، تحدثن إلي، فمن يدري! لعلني أن أكون في يوم من الأيام واحدة منكن، لعلني أن أكتسي هذا الرداء الأحمر القاني الذي تكتسينه والذي يدعوني إليكن ويخيفني منكن ...!

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إليّ الهواء من بعيد فيبلغني نحيلاً ضئيلاً، ولكنه على ذلك يشيع في سكون الليل كما يشيع الضوء في الجو ...